رسائل من الماضى

أجمل ما قرأت من وعن نصوص مصر القديمة

تميز الإنسان المصرى القديم بالحكمة والأدب والرومانسية. وتفردت نصوصه بخصوصية العمق والنظر إلى الأشياء والأحداث الحياتية بفلسفة مجدية، وصاغ الكثير من الجمل ذات المعانى المميزة انبثقت منها حكمة العالم القديم. وكان لتلك الحِكم الأثر الأكبر فى تعاملات الناس مع بعضها البعض عندما تغلغلت فى نسيج المجتمع، وتوحدت مع الشخصية المصرية .

أحاول من خلال سرد تلك المقولات القديمة أن أستحضر الروح المصرية القديمة بطبيعتها الفكرية والأدبية والعملية. مصر القديمة لم تكن فقط أسطورة ومعبدًا وهرمًا، لم تُختزل الحضارة التى علمت العالم العلوم والفنون فى مسلة وجثمان محنط، ولكن كانت حضارة قائمة على إيمان موضوعى برسالة البشر، حضارة تفتخر بنفسها، تجتهد لتُرسخ فكرة التطور الاجتماعى. ورغم كل هذه الدراسات والتحليلات لتاريخ مصر القديمة فنحن ما زلنا لا نعرف عنها إلا النذر اليسير، ولكن بوسعنا توسيع دائرة المعرفة عن طريق دراسة الشخصية المصرية القديمة التى ضربت بجذورها فى أرض الحضارات، فأنبتت مجتمعًا متمدينًا. وها نحن نجنى ثمار تلك الحضارة، ونرتشف من أنهارها، وننهل من علمها.

مقولات مصرية قديمة

١ - كان المصرى القديم يؤمن بأنه يجب عليه أن يتطهر من كل الذنوب ويؤكد أنه لم يفعل ما يغضب الأرباب، وقد وردت تلك المقولات فى كتاب الموتى فى يوم الحساب عند دخول المتوفى قاعة الصدق :

إنى لم أرتكب ضد الناس أية خطيئة

إنى لم أرتكب أى شىء خبيث

إنى لم أفعل ما يمقته الرب

إنى لم أترك أحدًا يتضور جوعًا

إنى لم أتسبب فى بكاء أى إنسان

إنى لم أرتكب القتل

إنى لم أرتكب الزنا

إنى لم أُخسر مكيال الحبوب

إنى لم أثقل وزن الموازين

إنى لم أغتصب لبنًا من فم الطفل

إنى لم أمنع المياه عن أوقاتها

إنى لم أضع سدًا للمياه الجارية

إنى لم أسرق

إنى لم أتلصص

إنى لم أبعث الخوف

إنى لم أنطق كذبًا

إنى لم أكن طماعًا

إنى لم أضاعف الكلمات عند التحدث

ولم يكن صوتى عاليًا فوق ما يجب

إنى لم أسب

إنى لم أكن متكبرًا

إنى أعيش على الحق، وأتغذى من عدالة قلبى .. أعطيت الجائع خبزًا والعريان لباسًا

obeikandl.com

٢- ومن تعاليم الحكيم الكاتب «آنى» وهو كاتب فى قصر «نفرت ـ إيرى» (نفرتارى) زوجة الملك «رمسيس الثانى» من الأسرة التاسعة عشرة ـ حوالى ١٢٥٠ ق.م:

- الإنسان النافع يعمل لصالح من يحبه، مطهرًا إياه من ذلاته، ومحررًا إياه من احتياجاته المتنوعة، ساهرًا على أن يختفى كل ذلك. هكذا، يفعل قائد القطيع عندما يقوده إلى المرج، إذا كانت الضيعة بعيدة عن الحقل. ويقال مع ذلك إن الإنسان النافع موجود فى الموقع.

٣- من تعاليم الحكيم «أمن ـ إم ـ أوبى» إلى ابنه إبان فترة حكم الملك «أمونحوتب الثالث» ـ الأسرة الثامنة عشرة:

- احذر أن تسرق فقيرًا

أن تصرخ فى وجه أعرج

أن تمد يدك على رجل عجوز

أن تقاطع رجلاً كبير السن

لا تشترك فى عمل غش

لا تتعد على حدود أرملة

لا تجعل البحث عن الثروات كل شىء فى حياتك

لا تتخذ رجلًا سريع الانفعال أخًا لك

احذر أن تتكلم بلا تفكير

٤- من نصائح «عنخ ـ شيشنق» من العصر البطلمى:

- احترم أباك وأمك حتى تنجح

لا تُعارك فى موضوع أنت فيه مخطئ

إن من لا يجمع خشبًا فى الصيف لا يستدفئ فى الشتاء

لا تقتل حية وتترك ذيلها

اعمل الخير وارمه فى النهر، عندما يجف ستجده

obeikandi.com

أعط رغيفًا من الخبز لمن يعمل عندك، وستحصل على اثنين من عمل ذراعه

أن من لدغته أفعى يخاف من حبل ملفوف

٥- وكان للحب والرومانسية فى حياة المصرى القديم نصيب كبير:

- فى بردية ترجع إلى عام ١٤٠٠ ق.م وهى الآن فى متحف اللوفر بباريس يقول النص: «إيزيس ياخيرة، يامن حمت أخاها أوزوريس ... والتى بحثت عنه دون كلل .. وطافت البلاد فى حدادها، ولم تنل أية راحة حتى عثرت عليه ..وظللت عليه بجناحيها .. ودفعت إليه النسيم من خفق ريشها ... وابتهجت لما عثرت عليه وحملت أخاها إلى بيته .. هى من أعاد الحياة إلى من فقدها».

- وتقول هذه السيدة المغرمة: «كل مرة أتركك .. لا أستطيع التنفس .. أحلم أحلامًا كاذبة عن حُبك المفقود وقلبى يقف فى داخلى ... أمعن النظر فى فطيرة البلح المفضلة إلى ... هى كلها سوف تصبح (بطعم) الملح الآن ... وعصير الرمان الذى كان حلو المذاق لشفتى .. (هو الآن) مذاقه مر .. مر .. المس أنفى بأنفك ... الحب ... وقلبى المتلعثم يتكلم بوضوح ... تنفس فى أكثر من أنفاسك .. اجعلنى أعيش ... الرجل الذى هو من أجلى ..».

- وفى قصيدة حب أخرى يقول المصرى فى النص واصفًا محبوبته: «سيدة واحدة، لا مثيل لها ... أجمل من أية سيدة عداها، ها هى تشرق مثل سيدة النجوم ... عندما تُشرق فى بداية عام سعيد بعينين جميلتين ترى ... متدفقة الحديث ...شعرها لازورد صافٍ ... أصابعها فى روعة زهور اللوتس .. محظوظ من يراها».

- وفى بردية «شستر بيتى» يشرح الحكيم «آنى» كيف يجب على المرء قيادة حياته الاجتماعية، وكيف يتعامل مع زوجته فى المنزل قائلًا: «هناك فى البيت أسباب للخصام، على القلب أن يتجنبها ... لذا لا تراقب زوجتك فى البيت ما دمت تعرف أنها كفأة ولا تقل لها: «أين يوجد هذا ؟ أحضريه»، فى حين أنها وضعته فى المكان الصحيح .. فلتراقبها عيناك بينما تظل أنت صامتًا ... وعندما تمسك بيدك ..فإن هذا شىء طيب وسعيد ... الكثيرون لا يعرفون ذلك ... إذا كان رجل لا يريد الخصام فعليه ألا يبدأ.

- ومن تعاليم عمدة المدينة «بتاح ـ حتب» وزير الملك «إسيسى»: «أعز زوجتك فى منزلك كما ينبغى ... املأ بطنها، واكس ظهرها .. ومن ثم اجعلها سعيدة ما دمت حيًا .. إذا صددتها .. عندئذ تنهمر الدموع».

- وعلى شقافات مجمعة من إناء بالمتحف المصرى نقرأ هذا النص لهذه القصة الرومانسية القصيرة التى توضح المجهود الخارق الذى بذله الحبيب للوصول إلى محبوبته. يقول النص: «أعشق أختى (يقصد هنا محبوبته) على الشاطئ الآخر، والنهر يفصل بيننا، والمياه تندفع بشدة فى زمن الفيضان والتمساح واقف بالمرصاد فوق شط رملى، ولكنى أنزل إلى الماء وأغوص وسط الأمواج .. إن قلبى قوى فوق النهر، والتمساح يبدو لى كالفأر، والماء تحت قدمى أشبه باليابسة، إن حبى لها هو الذى يمنحنى القوة، وكأن وجودها قد سحر الماء، وأنا لا أدرى سوى رغبة قلبى فى حين إنها تقف أمامى».

- وفى بردية «هاريس» رقم ٥٠٠ يؤكد الحبيب المصرى القديم عدم تخليه عن حبه أو عن محبوبته مهما حاول العُزال أو الرافضون. يقول النص: كلا ... لن أتخلى عنها وإن طردونى بالهراوات والعصى إلى أرض آسيا، وبالمقامع إلى أرض الجنوب، وبالضرب حتى أطراف الصحارى أو بالسياط حتى سواحل البحار، كلا لن أستمع إلى من يقولون لى أن أكبح جماح اشتياقى إليك».

٦- ويُفرد الكاهن الأعلى للرب «جحوتى» المدعو «بتوزيريس» بالأشمونين ـ المنيا ـ مساحة كبيرة لشرح فضائل ومزايا زوجته «طنبت نفرت» قائلًا: «زوجته، حبيبته، ربة الحسن والجمال، الرقيقة بحبها ...ذات الكلمة الفصيحة والأحاديث الطيبة، والنصائح النافعة فى كتاباتها. إن كل ما تنطق به شفاتاها يتشابه تمامًا مع أعمال «ماعت» (ربة العدالة والنظام). إنها الزوجة الكاملة، لها مكانة مرموقة فى بلدها، تمد يدها إلى الجميع، وتتكلم كلامًا طيبًا وتردد ما يُستحب، تسعد كل واحدة، ولا يخرج من بين شفتيها كلام سيئ، مفعمة بالحب للجميع، «طنبت ـ نفرت».

٧- وقد أسهب المصرى القديم فى الكتابة عن الأم وفضلها على البشرية وعلاقتها بالخالق. يقول «آنى» فى حِكمه الموجهة إلى ابنه: «ضاعف كمية الخبز التى تقدمها لأمك، احتملها كما احتملتك، إنها عندما ولدتك بعد شهور من حملك استمرت تحملك حول عنقها، ثم أعطتك ثديها ثلاث سنوات. إنها لم تتقزز يومًا من فضلاتك. إنها لم تقل يومًا (لما أفعل ذلك؟) لقد أخذتك إلى المدرسة، إلى حيث تتعلم الكتابة، وانتظرتك هناك كل يوم، ومعها الطعام والشراب الذى أحضرته من المنزل، فإذا ما كبرت واتخذت لك زوجة وأصبح لك بيت خاص، فلا تنس أمك التى

حملتك وزودتك بكل شيء، فإنك إن نسيتها كان لها الحق فى أن تغضب عليك، وأن ترفع يديها شاكية إلى الرب. وسوف يستمع (الرب) لشكواها».

- ومن أشهر الأمهات اللائى ذكرهن التاريخ المصرى القديم أم الملكين «كامس» و«أحمس»، الملكة «إيعح ـ حتب». وقد كانت حياة تلك الأم الرءوم عبارة عن سلسلة من الكفاح والجهاد والمواقف الصعبة والأحداث المريرة والحساسة، ولكنها استطاعت أن تنجح وتعبر كل هذه الصعوبات بحكمة الأم وصلابة المرأة المصرية، والملكة «إيعح ـ حتب» كانت زوجة الملك «سقنن رع ـ تاعا الثانى» أول من قاد حرب التحرير ضد الغزاة الأجانب الملقبين بالهكسوس (حكا ـ خاسوت). وقد قُتل زوجها أثناء الحرب ضد المعتدين، فتمالكت نفسها ولم تظهر أى ضعف أو تهاون لمعرفتها، إنه لو حدث هذا لاستفاد أعداء مصر من موقفها الضعيف، ولكنها وقفت بجانب ابنها الأكبر «كامس» ووضعته على عرش مصر، وجمعت القوات العسكرية، ولمت شمل المتفرقين تحت راية واحدة. وعندما فقدت إبنها «كامس» أيضًا أثناء حرب التحرير لم تفقد الزمام، بل وقفت بجانب إبنها الثانى «أحمس» حتى تحقق المراد وتخلصت مصر من الاحتلال الهكسوسى. وأثنى عليها ابنها «أحمس» وبنى لها مقبرة مميزة، وخلع عليها الألقاب المبجلة، وأهداها القلادة العسكرية المعروفة بالذبابات الذهبية الثلاثة، وهو أعلى نوط عسكرى فى مصر القديمة، وبذلك أصبحت هذه الأم المكافحة أول أم فى تاريخ الحضارات تحصل على هذا النوط العسكرى المميز. يقول «أحمس» طارد الهكسوس عن أمه «إيعح ـ حتب»: «امدحوا سيدة البلاد، وملكة شواطئ المناطق النائية. إن منظرها المرسوم يرفرف على كل الأمم الجبلية، وهى التى تتخذ القرارات الخاصة بشعبها، إنها زوجة الملك، وأخت الملك، فليمتعها الرب بالحياة والصحة والقوة. إنها ابنة ملك، وأم الملك المبجلة. وهى على علم بكل الشئون التى توجد فى أنحاء مصر. لقد جمعت بين نبلاء مصر، وعملت على تضامنهم معًا. لقد أعادت الفارين، وجمعت المنشقين، لقد جعلت السلام يسود مصر العليا، ودحرت المتمردين «إيعح ـ حتب»، زوجة الملك، فلتتمتع بالحياة».

٨- وكان المصرى يحترم ويحب الحيوانات، وقد نجح فى ترويضها واستئناس العديد منها مثل الأسد والفهد والكلب والقطة. وقد حرص على معاملتها بطريقة طيبة وحضارية. يقول «هيرودوت»: «والحيوانات الأليفة عندهم كثيرة ... وعندما تموت قطة موتًا طبيعيًّا فى منزل من المنازل، يَحلِق كل سكان المنزل حواجبهم فقط، أما إذا مات لهم كلب فيحلقون شعر البدن كله

والرأس أيضًا»، وهو ما يشرح حالة الحزن والكآبة التى كانت تحط على المصرى القديم عند فقدانه لتلك الحيوانات التى ارتبط بها.

٩- وقد استمر حب مصر يغزو قلوب كل من دخلها وشاهدها وشرب من نيلها وتمتع بجوها الصحو وطبيعتها الخلابة.

- فقد روى أن «عبد الله بن عمر» قال: «من أراد أن ينظر إلى شبه الفردوس، فلينظر إلى مصر حين يخضر زرعها ويزهر ربيعها ..».

- بمصر عدة مشاهد وكثير من المساجد، وبها النيل والأهرام، والبرابى والأديار، والكنائس، وأهلها يستغنون بها عن كل بلد، حتى إنه لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد. (تقى الدين المقريزى فى كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»).

- وأكد اسم «سليم حسن» أستاذ الأساتذة فى علم المصريات فى يناير من عام ١٩٥٦م أن «مصر أصل مدنيات العالم».

- وقال الشيخ الأديب «ظافر الحداد الإسكندرى» فى ديوانه:

تأمل هيئة الهرمين وانظر ... وبينهما أبو الهول العجيب
كعمارتين على رحيل ... كمحبوبين بينهما رقيب
وما النيل تحتهما دموع ... وصوت الريح عندهما نحيب

منظر عام لهضبة الجيزة ٢٠٠٨

obeikandl.com